المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

لقد قطعت دراسة تاريخ الكرد في العصر الإسلامي أشواطاً بعيدة في السنوات الأخيرة، إذ ظهرت في هذا المجال بحوث ساهمت في إبراز مكانة الكرد، وتبيان أثرهم في التاريخ الإسلامي ولاسيما في الجوانب السياسية والعسكرية، غير أن جوانب من مجمل تاريخ الكرد في العصر الإسلامي مازالت محاطة بهالة من الإبهام والغموض، لم تصل إليها أيدي الباحثين. وعلى وجه الخصوص النواحي الحضارية من هذا التاريخ التي لم تحط بما تستحقه من الدراسات المنهجية والعلمية وعلى الرغم من أنها تشكل الأوجه الأكثر إشراقاً من تاريخ الإسهامات الكردية في العصر الإسلامي ولاسيما في بلاد الشام ومصر، حين كان للكرد اثر فعّال ضمن الأمة الإسلامية على عهد المماليك البحرية، وإذا كان التاريخ يحفظ للكرد ذلك المجد السياسي والعسكري الذي سجلوه في الحماية عن العالم الإسلامي والذود عنه خلال عصر سيادة الدولة الأيوبية على مصر وبلاد الشام، فانه لا ينكر مطلقاً دورهم الحضاري المشهود خلال ذلك العصر وبعده وذلك نظراً لان سقوط الدولة الأيوبية لا يعني - نسبياً- اكثر من ضياع النفوذ السياسي الكردي على اغلب أصقاع مصر وبلاد الشام مع بقاء نفوذهم الاجتماعي والحضاري قائماً يشكل ركناً مهماً من أركان المجتمع الإسلامي آنذاك، ولما كان من المتعذر تناول كل الجوانب التي تتعلق بتاريخ الكرد في بلاد الشام ومصر في دراسة واحدة مفصلة تحيط بها جميعها وتخوض في كافة خفاياها فقد تم اختيار مشاركات الكرد في الحضارة الإسلامية خلال الحقبة المحددة للبحث التي ارتسمت معالمها في الاهتمام البالغ الذي أولاه علماء الكرد وأعلامهم في خدمة الحضارة الإسلامية.

وبما أن لكل حضارة سماتها وخصائصها، ولكل إنسان فرداً كان أو جماعة أن يتأثر بروح عصره ويتفاعل وإياها وينصهر معها في بودقة واحدة فتظهر صورة متميزة بطابع تلك الحضارة، ونظراً لان الكرد كان واحداً من التراكيب السكانية النشطة في بلاد الشام ومصر، عاشوا في كنف الحضارة الإسلامية عصرئذٍ، كان لابد أن يشملهم مبدأ التأثير والتأثر - فيما يتعلق بروح العصر على الأقل- فعملوا مع الشعوب الإسلامية الأخرى وخارج بلادهم على الانتهاض بهذه الحضارة، وقاموا بدور مشهود في استكشاف مكنوناتها. الدور الذي يمكن أن يقال فيه أن الدراسات التاريخية لم تعط حقها في البحث والتقصي. وهو بمسيس الحاجة إلى دراسات جادة ومعمقة ومن هذا المنطلق فقد وقع الاختيار على موضوع (الكرد في مصر وبلاد الشام خلال عصر المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م دراسة حضارية)، وهو يختص بمحاولة الدراسة وتسليط الضوء على مجمل النشاطات الحضارية التي نتجت عن مشاركة الكرد في مختلف نواحي الحياة الإدارية والدينية والعلمية في الرقعة الجغرافية المشمولة بالبحث. وكان بود هذه الدراسة التطرق إلى نواحي أخرى اجتماعية واقتصادية ولكن المعلومات المتوفرة التي تخص هذا المجال من الشحة والاقتضاب إلى حد لا يسعف الباحث في تأطير رؤية تاريخية واضحة، أو تشكل درس تأريخي متكامل.

وتكمن أهمية - هذا الموضوع- علاوة على ما ذكر- في محاولة إبراز جوانب من تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر وبلاد الشام ابان العهد المملوكي عبر تتبع دور أحد مكونات المجتمع الإسلامي هناك، وليس هذا بدافع تمييز الكرد عن باقي الشعوب الإسلامية الأخرى بل بغية بحث إسهامات الكرد في تطوير الحضارة الإسلامية خلال حقبة الدراسة ولإعطاء هذه الإسهامات أبعادها التاريخية وتأسيس معالم صورة جلية في هذا الصدد.

وتجدر الإشارة إلى أن دافع الرغبة بالتخصص في الحضارة الإسلامية والإحاطة ببعض جوانبها التاريخية فضلاً عن أهمية الموضوع فيما يخص تاريخ الكرد والتاريخ الإسلامي على حد سواء، من ابرز البواعث على طرق هذا الموضوع الذي يشكل جزءاً من حلقة مهمة في التاريخ الإسلامي التي لا تزال شبه مفقودة او سماتها غير واضحة المعالم.

كما يحرز في ضوء هذا البحث تعرف كيفية انتقال الكرد واستيطانهم في بلاد الشام ومصر وترسيم الخط الحضاري المتواصل الذي ساروا عليه منذ العصر الأيوبي، والإحاطة بطابع الحضارة الإسلامية خلال تلك المدة وذلك بعد انتقال مركزها إلى مصر وبلاد الشام.

ومن الطبيعي أن تكتنف مسالك البحث في موضوع متشابك مثل هذا صعوبات وعراقيل في مقدمتها عدم تمكن الباحث من السفر إلى المناطق التي مارس فيها الكرد نشاطاتهم الحضارية خلال حقبة البحث بغية الوقوف على آثارهم هناك ولإشباع نهم وطموح الباحث في الحصول على المزيد من المصادر ولكن باءت جميع محاولاته بالفشل لأسباب موضوعية تتعلق بعدم توفر إمكانيات السفر إلى خارج البلد لطلاب الدراسات العليا. ولكن حاول الباحث قدر الإمكان تذليل هذه القيود بفضل الله وعونه عن طريق التحري الدؤوب المتواصل عن المعلومات الدقيقة في بطون مصادر الدراسة وما يتعلق بها والاستعانة بالمراسلات والاتصالات والانترنيت لغرض الحصول على اغلب ما ابتغاه من سفره.

وقد ألجأتني طبيعة الموضوع كونه دراسة حضارية، إلى الوعور الصعبة المتمثلة بضرورة تتبع إلمام المعلومات المتشتتة في بطون المظان التي غالباً ما كانت المعلومات السياسية والعسكرية هي الطابع السائد عليها، وصعوبة أخرى واجه البحث هي التثبيت من كردية الشخصيات والعلماء المشمولين بالبحث، وقد اتبع في تحقيق هذا المسلك منهجاً يمتاز بالوضوح والأمانة العلمية روعي فيه اعتماد نبش معلومات المصادر وغربلتها وإخضاعها للنقد التاريخي، ومن ثم تثبيتها جوهراً وفحوى، وأحياناً نصاً في صفحات البحث. فقد تم اختيار أعلام البحث وعلمائه أما لان بعضهم كانوا معروفين في المصادر بالنسب الكردي وذكروا فيها ذكراً صريحاً أو لأن عدداً منهم كانوا مشهورين بنسبهم القبلي وهو الانتساب إلى القبائل الكردية المشهورة في العصر الإسلامي. وهناك شخصيات من أعلام الكرد خلال حقبة البحث انتسبوا للأسر الكردية المشهورة. ومنهم من كانوا معروفين بأصلهم الكردي كالأيوبيين، فضلاً عما سبق تضمن البحث شخصيات انتسبوا إلى بعض المدن المشهورة في بلاد الكرد التي عرفت بأنها كانت ذات ثقل سكاني واضح من الكرد والى العصر الحاضر. أي الأعلام الذين كانوا يمتون ببلاد الكرد بماتة الأصل ولضمان

كون هذا الاختيار اكثر علمية ودقة تم مراجعة وتدقيق نسب هؤلاء الشخصيات واختير منهم الذين لم ينتسبوا إلى انساب غير كردية أو ممن نسبهم العرقي والقبلي لم يكن واضحاً.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع وكيفية التعامل العلمي مع المادة المجموعة لها بناء خطة تتضمن أربعة فصول مبدوءة بمقدمة وتتبعها الخاتمة والملاحق وقائمة المصادر. تناول الفصل الأول نبذة تاريخية عن جذور تواجد الكرد ودورهم الحضاري في بلاد الشام ومصر قبيل العهد المملوكي وذلك في مبحثين، خصص المبحث الأول لدراسة وتتبع جذور تواجد واستيطان الكرد في مصر وبلاد الشام، وذلك من خلال بحث العوامل المؤدية إلى ذلك، أما المبحث الثاني فيختص بتبيان دور الكرد الحضاري في تلك المناطق قبل ظهور الدولة المملوكية باعتبار انه الأساس الذي قامت عليه إسهاماتهم الحضارية في القنوات اللاحقة، إذ تم التطرق إلى بدايات الظهور الحضاري للكرد هناك، كما وسلط الضوء على مآثرهم الحضارية إبان الحكم الأيوبي بشيء من الاختصار تحاشياً للإطالة والتكرار نظراً لان هذا الجانب قد أشبعت تقصياً ضمن دراسات عامة حضارية عن العصر الأيوبي.

أما الفصل الثاني فقد تصدى لدراسة دور الكرد في مجالات الإدارة والعمران، إذ خصص المبحث الأول لعرض نبذة تاريخية عن دولة المماليك البحرية، وذلك بغية تعرف التاريخ السياسي العام للدولة بشيء من الإيجاز والاقتصار على الأهم الذي يخدم هدف الرسالة. أما المبحث الثاني فتناول جوانب تاريخية من دور الكرد في الإدارة المملوكية سواء في ضوء الوظائف الإدارية أو الوظائف الديوانية التي تولوها من نيابة وولاية ووزارة وما إلى ذلك. عالج المبحث الثالث دور الكرد في العمران معتمداً النصوص التاريخية والبقايا المادية والآثار العمرانية في اهتمام عدد من الشخصيات الكردية من ذوي النفوذ واليسار وعنايتهم بالعمارة الدينية من مساجد وربط وخوانق وزوايا. وختم المبحث بتسليط الضوء على العمائر الخدمية التي شيدت من قبل الكرد في رقعة البحث.

وقد خصص الفصل الثالث لكشف مكانة أعلام الكرد وعلمائهم في الوظائف الدينية التي تعدّ من أهم إسهاماتهم الحضارية، فتم فى المبحث الأول أستجلاء اثر الكرد في الوظائف القضائية من قضاء القضاة وقضاة المدن ونيابة الحكم وقضاء العسكر وإفتاء دار العدل. وتناول المبحث الثاني دور عالمين من علماء الكرد في وظيفة وكالة بيت المال. بينما ركز المبحث الثالث على بيان ما ورد في المصادر عن علماء الكرد من الذين تولوا وظيفة الحسبة، وعرض المبحث الرابع لدور عدد من أعلام الكرد في ممارسة وظيفة مشيخة الخوانق ودور الحديث والزوايا. وتطرق المبحث الخامس إلى وظيفة النظر بشقيها، نظر الاحباس ونظر الجوامع والخوانق والمدارس والمارستانات، وتبيان إسهام الشخصيات الكردية في هذا المجال. وفي المبحث السادس سلط الضوء على مكانة عدد من علماء الكرد في وظيفة الخطابة مع التطرق إلى ذكر مدوناتهم بهذا الخصوص. أما المبحث السابع والأخير فيتعلق بدراسة إسهام علماء الكرد في مجالي التدريس والإعادة بمدارس الشام والديار المصرية خلال حقبة البحث.

وفيما كان الاهتمام في الفصل الرابع والأخير منصبا على أثر الكرد في الحياة العلمية، بين قي المبحث الأول مدى تفاعل الكرد مع البيئة العلمية السائدة عصرئذٍ وذلك من خلال نشاطات علمائهم في مجال العلوم الدينية من علوم القرآن وعلم الحديث وعلم التصوف. وتم مع التمحيص و الدقيق تتبع دور علماء الكرد في هذه المجالات مع الإشارة إلى مواقفهم وآثارهم المدونة. أما المبحث الثاني فخصص لدراسة دور الكرد في مجال العلوم الإنسانية بما فيها علم التاريخ والجغرافية والفلسفة. وفي المبحث الثالث تم التطرق إلى علم اللغة والأدب ومن نبغ فيها من علماء الكرد. في حين خصص المبحث الرابع والأخير لدراسة مآثر علماء الكرد في مجال العلوم البحتة وقدر فيها مكانة أعلام الكرد الذين برعوا في هذا المجال.

وعرضت في الخاتمة خلاصة ما توصل إليه البحث من استنتاجات تاريخية.

أما فيما يتعلق بالمنهج المتبع في البحث فقد كان منهجاً تاريخياً استقرائياً وذلك للقناعة بأنه انسب المناهج لتغطية مثل هذا الموضوع مع انتفاء الحاجة إلى منهج الموازنة والتحليل لطائفة من الروايات التاريخية في الحالات التي تقتضي الدقة التاريخية.

وأخيراً فما هذه الرسالة إلاّ عملاً متواضعاً بذلت فيه جهداً وتوخيت فيه الحقيقة ما استطعت، لكي يضيف لبنة إلى تاريخ الإسلامي الشامخ، فان وفقت فيه إلى الصواب فذلك بمن الله وفضله وإذا تعثرت لي الخطى فمن قصور نفسي. والكمال لله وحده فهي غاية لا يدركها إنسان. وحسبي أني عانيت وسهرت وحاولت. وآمل أن يسد الموضوع ثغرة في مجاله. والله من وراء القصد.

تحليل
المصادر والمراجع الأساسية

لقد استقى هذا البحث مادته العلمية من عدد غير قليل من المصادر والمراجع التاريخية التي تمتاز بالتعددية والتنوع، وذلك بغية سبر أغوار المعلومات التاريخية التي تسعف موضوع الدراسة من جهة ولإعطائها صورة أكاديمية متكاملة من جهة أخرى، ولكي يستطيع من خلالها عرض الحقائق التاريخية التي كانت مبعثرة في ثنايا هذه المصادر وذلك عن طريق اقتناصها وتركيبها ومن ثم إعادة توظيفها بما يتناسب ومنهج الدراسة وهدفها.

إن ما يميز اكثر المصادر المعتمدة في هذه الدراسة هو معاصرة مؤلفيها للحقبة الزمنية التي حددت للبحث، ومعايشتهم مع أحداثها بل ومشاركة بعضهم فيها، لذا فان المعلومات والروافد التاريخية المستقاة منها جاءت لصيقة بروح البحث وكانت اقرب إلى الواقعية، وبهذا تشكل العصب الرئيسي لهذه الأطروحة، وسيتم في تحليل المصادر والمراجع التركيز على بيان القيمة التاريخية للمعلومة التي توفرها المصادر ومدى إفادة فصول هذه الدراسة منها، وهل هي معلومات مستندة إلى مصادر أخرى أم مستقاة من مشاهدات المؤرخ ومعايشته لها ؟ وبما أن طبيعة الموضوع اقتضت الرجوع إلى مختلف المصادر والمراجع التي تحوي معلومات تاريخية عن عصر المماليك البحرية، فضلاً عن تاريخ الكرد في العصر الإسلامي، وطلباً للاختصار وتقييداً بالمنهج العلمي المتبع يرى البحث الاكتفاء بإلقاء ضوء تحليلي على أهم هذه المصادر التي كانت أما معاصرة لحقبة البحث أم لها مساس مباشر بالموضوع.

أولاً. المصادر

آ. كتب التراجم والطبقات والسير

يعد هذا النمط من الكتب من أهم منابع الدراسة، كونها تترجم للإعلام والشخصيات البارزة في مختلف المجالات، فكتب التراجم العامة لا تختص بفئة واحدة معينة متفقة المشارب بل وترجم للمشاهير الملوك والسلاطين وغيرهم من الأمراء والعلماء. بينما تترجم كتب الطبقات لجماعات واعيان اتحدت مشاربهم وتطابقت تخصصاتهم وتلاقت ثقافاتهم[1]. أما كتب السير فتختص بترجمة أحد الأعيان سواء أكان من أصحاب السياسة أو من العلماء، وتفصل في ذكر مناقبه ونشاطاته ومواقفه.

ويعد كتاب (تراجم رجال القرنين السادس والسابع المشهور بـ (الذيل على الروضتين) للمؤرخ أبي شامة (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) من أوائل المصادر التاريخية التي سجلت معلومات بخصوص عدد من أعلام الكرد ولاسيما في بلاد الشام. إذ أن المؤرخ المذكور وبسبب كونه عالماً بطبيعة عمله كمدرس في دمشق، عاصر عدداً من علماء الكرد هناك، والتقى بهم، وذكرهم في كتابه ضمن الوفيات التي تقع على وجه التحديد بين السنوات (٦٥٠-٦٦٥هـ/١٢٥٢-١٢٦٧م).

وعلى الرغم أن معلوماته تمتاز بالاقتضاب لكنها كانت مهمة ورصينة لأنها سجلت مباشرة ومن قبل شاهد عيان، وأصبحت مصدراً للمؤرخين الآخرين أمثال الذهبي وابن كثير وغيرهم. وانتفع البحث بمعلومات أبي شامة في الفصلين الأول والثاني على وجه الخصوص.

أما كتاب (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور) للمؤرخ ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) فكان من الكتب التي انفردت بمعلومات هامة، نظراً لان مؤلفه كان رئيساً لديوان الإنشاء أيام الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)[2]. ومن ثم فإن ما دونها في كتابه هذا بصدد بعض الشخصيات الكردية يعدّ معلومات أصيلة نوعاً على الرغم من قلتها كماً.

---

[1] مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب (بيروت: ١٩٧٩)، ص٥٣٩.

[2] Francesco Gabrieli, The Arabic Historiography of the Grusades in the (H. M. E) ed by, Berhard Lewis P. M. HOLt, (London: 1964) , p. 100.

وشكلت بعض مصنفات المؤرخ الذهبي (ت ٧٤٧هـ/١٣٤٨م) مصادر أساسية اعتمدتها الدراسة في نحو كتاب (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام) الذي اتبع مؤلفه المنهج الحولي في عرض بعض الحوادث التاريخية باقتضاب، ولكن خصص الجزء الأكبر من كتابه لترجمة مشاهير أعلام المسلمين. ويعد الذهبي من ابرز المؤرخين الذين استحدثوا هذا النهج في التدوين التاريخي الإسلامي[١]. وأفاد البحث من الأجزاء الثلاثة التي تعالج الحقبة الزمنية الواقعة بين (٦٥١-٦٨٠هـ/١٢٥٣-١٢٨١م) وكانت تحوي ترجمة الكثير من العلماء والشخصيات الكردية. ومثلت معلوماتها المادة التاريخية الأساسية ولاسيما فيما يتعلق بعلماء الكرد في بلاد الشام. ويلحظ أن المؤرخ الذهبي كونه أحد مشاهير علماء المسلمين كان له فائق العناية بتسجيل المعلومات التاريخية التي تخص الاهتمام العلمي لذا نجد أن المحدثين والحفاظ من العلماء يشكلون غالبية الشخصيات الذين ترجم لهم الذهبي ومنهم المحدثين الكرد أما ما يمتاز به أسلوب الذهبي فيما يتعلق بالبحث في كتابه هذا فهو كثرة التحري والتقصي في تحديد أسماء علماء الكرد وكناهم وألقابهم مع ذكر سنة وفاتهم، وأحياناً ولادتهم بدقة. وبذلك فان هذه الدراسة قد تعرفت على عدداً من علماء الكرد في بلاد الشام ومصر بفضل دقة تتبع الذهبي في تحديد نسب بعض علماء الكرد وأصولهم.

أما كتابه الآخر (معرفة القراء الكبار على الطبقات و الإعصار) فهو من الكتب المتخصصة في ترجمة العلماء القراء الذين ذاع صيتهم وطال باعهم في هذا المجال، ويتضمن الكتاب ذكر عدد من قرّاء الكرد بعضهم معروفون في المصادر الأخرى، ولكن الذهبي انفرد بترجمة عدد منهم من الذين اشتهروا في علم القراءات فقط، ومارسوا نشاطاً علمياً ملحوظاً. وقد اهتم بهم الذهبي لأنه كان معاصراً لهم والتقى ببعضهم. لذلك فان معلوماته التاريخية المتعلقة بهؤلاء العلماء كانت أصيلة وموثوقة. ومما زاد من أهمية هذا المصدر ذكره الأنساب أكثر الأعلام الذين ترجم لهم مما يمكن من خلاله التعرف على أصولهم.

أما كتابه (العبر في خبر من غبر) فيتضمن ترجمة عدد من الشخصيات الكردية ممن لهم اثر حضاري ملموس خلال حقبة البحث، إلاّ أن أسلوب الذهبي يمتاز في ترجمة أولئك الشخصيات بالإيجاز، ولم يهتم كثيراً بذكر أنسابهم وأصولهم، وتحاشا الدخول في تفاصيل

---

[١] Hamilton Gibb. Islamic Biographical literature in the (H. M. E.), P. 56.

نشاطاتهم وثقافاتهم، ولعل مردّ هذا إلى أنه أراد جمع اكبر عدد من التراجم في مصنف لا يتجاوز أربعة أجزاء. وتعدّ التراجم الموجودة فيه ملخصاً لما ورد في كتابيه اللذان أشير إليهما، مع إضافة شيء من المعلومات الجديدة عليه، ويتضمن الذيل الذي كتبه الذهبي على كتابه المذكور عدداً قليلاً من تراجم مختصر لعلماء الكرد غير أنهّا تمتاز بالدقة والتحري.

واستندت هذه الدراسة إلى عدداً من كتب المؤرخ الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، وعلى وجه الخصوص التاريخية منها، وفي مقدمتها كتاب (الوافي بالوفيات) الذي يشتمل على تراجم مشاهير أعلام المسلمين وفي مجالات مختلفة، إذ هيأ طبيعة وظائفه التي تولاها في بلاد الشام الفرصة المناسبة لتعرف شخصيات كثيرة والحصول على المعلومات عن طريق السماع من الآخرين[1]. ويلحظ من أسلوبه أنه مزيج من أسلوب المؤرخين أبن خلكان والذهبي من حيث التدقيق والعناية الوافرة بتحديد تواريخ وفيات الشخصيات المترجمة لهم، وأحياناً الاكتفاء بإيراد جانب من المعلومات غير المتكاملة عن أعلام لم يكن معاصرهم، ويحوي الكتاب في ثنايا أجزائه تراجم عدد من أعلام الكرد الذين كانوا من ذوي السلطة والشهرة والمكانة الاجتماعية، ولا سيما في العصر المملوكي. ويمكن القول أن للمؤرخ الصفدي السبق في تسجيل بعض التراجم لشخصيات كردية لم تكن معروفة على هذا النطاق لدى المؤرخين الآخرين، وقام الصفدي وبالاعتماد على مصنفات عدد من المؤرخين أمثال اليونيني والدواداري والذهبي بعرض تراجم لأولئك الشخصيات، وأضاف إليها ما سمعه، وما وصل إليه من معلومات بصددهم.

وقام المؤرخ الصفدي بانتفاء تراجم من كتابه (الوافي بالوفيات) كانت لطائفة من أعلام عصره، وكتب تراجم كثيرة أخرى عن شخصيات شاهدهم وجالسهم من معاصريه منذ ولادته والى سنة وفاته، وكون من هذا تصنيفاً خاصاً رتبه بترتيب معجمي وسماه (أعيان العصر وأعوان النصر)، وهو الذي يشتمل على تراجم لشخصيات كردية من المشاهير، ولاسيما في بلاد الشام. ومن المآخذ علي الصفدي في كتابه هذا عدم سلوكه في تتبع نسب بعض أولئك الشخصيات مسلكا يتجلى من خلاله أصولهم، كما تمتاز تلك

---

[1] Donald Presgrave Little, An Introduction to Mamluk Historiography (Wiesbaden: 1970), P. 102.